الأدب فى نهضتنا الحديثة

بقلم محمد هاشم عطية
الأستاذ بدار العلوم

٢

لم نكن متحاملين حين أشرنا فى مقالنا السابق الى بعض ما رأيناه من وجوه العيب فيما استشهدنا به من أشعار الطبقة الحديثة من شعرائنا المعاصرين ، ولكن هذا النقد ، على حظه من الصواب ، ومع ما لزمناه فى إيراده من التلطف ، قد أثار علينا حفيظة كاتب فى جريدة الجهاد الغراء يدافع عن البيت :

بك خف الجناح يأيها الطَّيْـــر وما كنت بالجناح تخفُّ

زعم أننا لم نفهمه ، وعجب حتى أطال العجب أن كيف يدرس الأدب للناس من لا يفهم هذا الكلام ، ونصح لنا أن نضم إليه قسيما له هو قوله :

لطفُ روح أعارَ جنبيك ريشا فمن الروح لا من الريش لطفُ

رجاء أن يعين الله ُ ونصل الى فهم المعنى المراد . ونحن نحب أن نظل فى موقفنا من مثل هذه الملاحاة بمنزلة المعرض التارك ، لأنه ليس فى وسعنا رد المتسرع ، ولا إعتاب المتجنى ؛ ولأنه لم يبق الى اليوم بين أهل العلم من لا يزال يضع اللجاجة مكان الحجة ، والاسترسال فى موضع التثبت ؛ ولأننا نعلم أن الكلام إنما يشرف حسبه ويعز جانبه إذا كان سهلا ممتنعا ، وقريبا مكشوفا ؛ وأنه إنما يكون خبيثا نكدا إذا كان مكدودا ملتويا ، وعويصا مقلوبا ؛ فلم يبق لنا مع هذا الكاتب موضع ، لأننا فى اعتراضنا لنقد البيت كنا خيرا منه إذ نصب نفسه للدفاع عنه فهجنه وعابه بما لم يبلغ اليه كلا منا . وهو لا يدرى بما هجم عليه ، لأنه

فى الظاهر من حاله ، لم يحتنك بالأدب بعد ، ولم يتمرّس بمثل هذه المحاولة فى الكتابة . على أننا لا ندع هذا البيت الثانى من غير أن نشير إلى ما فيه من تتابع الحروف المتقاربة الذى أدى إلى قربه من السماجة فى تأليف كلماته ، ويتبادر إلينا أن شطره الآخر قد لا يستقيم المتأتى من غير احتفال وحذر ، لاستباق كلتى الريش والروح إلى النطق فتقع إحداهما مكان الأخرى .

ولعل الذين يجعلون تنافر الكلمات من عيوب المنطق يعيدون النظر فيما يكتنف هذا البيت من الراءات والشينات ، فيجعلون منه شاهدا حديثا يكون قريبا من قولهم :

« فى رفع عرش الشرع مثلك يشرع »

ثم ماذا يبقى منه فى اليد بعد ذلك ؟ ! إنه شىء متعالم يقره الناس ولا يتنازعون عليه ، ويفهمونه على طبيعته من غير ان تنقلب الحال . او تنعكس طبائع الأمور . فهم يدركون أن الطائر يهم ويلهم فيطير ، كما يعزم الانسان ويفكر ويريد فيسير ويعمل ، من غير أن يتعالوا إلى هذا النسق الغريب من الفلسفة فى القول بأن اللطافة والخفة ما نشأتا فى الطير من الريش ، ولا ان الطائر يحلق بحوصلته فى الهواء ، أو يصف بظهره فى الجو ، أو يهوى برأسه إلى الأرض . ولو كان الأمر يستقيم على هذا لكانت الهبة فى البيت باطلة ، ولكانت إعارة الروح للجنبين ما أعارت من الريش لا قيمة لها . ولو كان هذا البيت برمته اختراعا فى الأدب ، أو مثلا من تنقير الفكر — وهو هكذا نافر من مألوف العادة ، معاند للعرف المستقر من طبيعة الوجود — لكان مع ذلك جالبا للمؤونة ، ومستحقا للاستكراه .

وهاهنا آخر ، وهو صاحب الينبوع ، زعم أننا كنا نتناوله « بروح

فقهيـة » وهى أقصى ما بلغ من جهده فى مراجعتنـا . ونحن مع تقديرنا لأدبه فى الكتابة ، نحب أن ننبهه ثانية إلى غرضنا من استعمال «بينا» فى الحشو أنها لاتقع إلا صدرا بالميم أو من غيرها . أما قوله : بروح فقهية ؛ فلم ندر ما يريد بهذه الكلمة ، ولعله يقصد هذه الملازمة والتتبع فى استقصاء الأشياء ، والتلبث فى أعقاب الأمور ؛ أو يريد ذلك التقدير الساذج من جماعة العوام لبعض الفقهاء القراء فيما يصفونهم به من الزمانة فى اصطناعهم لمظاهر التوقر المتكلف ، مع تشديقهم واستنكالهم ، وجهامة سمتهم . والله يعلم ما نحن من واحدة من هاتين فى شىء ، وأننا ما زلنا كارهين لغثاثة التتبع ، خائفين من فتنة العجب ، وإنما هى نخيلة نفس أفضينا بها ، ونصح جيب نشرناه ، فإن نصب فذلك مانهضنا له ، وإن نخطئ فمرحباً بمن يردنا من هوان الباطل إلى عز الحق ، ومن ظلمة الشك إلى وضح اليقين .

والآن نرجع إلى ما وعدنا به من القول فى النثر الأدبى ، والإشارة إلى آثار الكتّاب وطبقات المؤلفين من أهل العصر . نقول : إن الكتابة الإنشائية قد بلغت الآن من حسن الترسل ، ولطف العبارة ، وبلاغة المنطق ، والتشبه بالأوائل ، إلى ما يغرى بالقول بأن لبعض كتابنا من جمال النسق وحلاوة البيان ما يكاد يشبه كلام البلغاء ورؤساء الدواوين فى العصور الذهبية للكتابة العربية ، ويرجع أكثر الفضل فى ذلك — على مبلغ رأينا — إلى دراسات وأسباب ينبغى أن يجعل من أعظمها شأناً ظهور كتاب الأغانى للإمام أبى الفرج منذ ثلاثين سنة بفضل أبى محمد الساسى المغربى . ويومئذ أقبل أشياخ الرواق العباسى وطلاب دار العلوم ، وكثير من طلاب الحقوق والمعلمين وطبقات من القضاة والمتأدبين وأصحاب الكتب يقرءونه ويتعجبون منه ويتطرفون بفصوله ، لخلابة عنوانه ، وقديم شهرته . وفى ذلك الوقت كانت مقدمة

ابن خلدون وكتاب كليلة ودمنة عماد المدرسة القديمة فى رياضة الطلاب على العادة الصالحة ، وتنشئتهم بامتثال القدوة الحسنة . وتتابع الوراقون فى إحياء الأسفار الدفينة من ذخائر العربية ، فظهر العقد والكامل ومعظم كتب الجاحظ ، وترجم كتاب التربية الاستقلالية ، وسر تقدم الانجليز ؛ وعنيت المعاهد العلمية بدراسة هذه الكتب عناية فائقة غاية الوصف ، حتى لقد كان بعض القدامى من الأساتذة — رحمهم الله — يحملون طبقة من طلابهم على الاستظهار بكل سبيل لاستخراج ما فى كتاب أبى الفرج من الكلمات والأساليب والرسائل والمقطوعات والأحاديث المطولة والقصائد المختارة . وكان كتاب التربية الاستقلالية — وهو مثل ممتع من الأدب الأجنبى فى استقامته وامتناع أسلوبه العربى — مزاجا من ثقافة البلاغتين ، وسع المتأدبين من طلاب المعلمين فى المدرستين ، وأقبل الناس ، من أخريات القرن الفائت ، يتفلتون من مؤنة السجع ، ويفرون من عقالات التكلف إلى محاكاة هذه الأساليب ، التى كان من أكثرها ذهابا إلى الغاية أسلوب ابن خلدون ؛ فاشتد إليه الناس وغمرهم الشغف بما فيه من الآراء الحديثة ، والأوضاع الاجتماعية ، حتى تعلق بالألسنة ، وتأثرت به الكتابة إلى مدى أبقى فى لغة كثير من خاصة كتابنا أخطاء[1] قلمية وقعت فى هذا الأسلوب لم يتنبه إليها معظمهم إلى الآن . ثم جعل التعليم فى مدرسة الحقوق بالعربية ، واستفحل أمر المحاماة ، وصارت حاجتها إلى خلابة المنطق وفصاحة اللسان كحاجتها إلى أوصاف الدفاع ومبادئ القانون . وكان نادى المدارس العالية سامراً راقياً يبث الأفكار الجديدة ، وينشر الثقافات المدنية . وكان النادى

(١) كادخال باء التعدية فى فعل استبدل على غير المتروك . وكوضع الواو فى خبر لابد فيقول : لابد وأن . وكتعدية ، تعود ، بعلى . وكجعل الخبر استثناء ، فيقول : فانه وإن كان كذا ألا أنه . أو لكنه .

القديم لدار العلوم منبراً آخر تهتز أعواده بأصوات الخطباء والمحاضرين من جهابذة الأدب القديم . وثارت يومئذ عجاجة النازعين إلى التعريب ، واستحر الجدل بين أشياخ العربية وأعلامها ، وكان حفنى والخضرى والمهدى ومفتاح وشاويش والاسكندرى ، وكان معهم من علماء هذه الطبقة أمثال فتحى زغلول واحمد زكى وغيرهم .

وعمرت مجالس الناس بأهل الأدب ، وتعاطاه كثير من طبقات المثقفين بأجناس العلوم المدنية ، وكان للويلحى والبابلى وحافظ والبشرى والخليل والمنفلوطى وتلاميذهم مجالس لدراسة الكتب والأشعار ، والتملح بالنوادر فى دورهم ودور أخوانهم والمتظرفين بهم من أعلياء الناس وأوساطهم ، وما من عشير لحافظ - رحمه الله - إلا وهو مدين له بكثير مما عرف من طرق الاختيار للكلام ، وتحصيل الآداب الموصوفة لشعراء العصور ، والاهتداء الى الأوابد من مقامات البلغاء ومجالس المتأدبين . وكانت الصحف قد بدأت مع هذه المدارس ، والى أولئك المصلحين تنهض بجانب من الثقافة ، وان لم يكن الناس ذلك الوقت ينظرون إليها فى الجملة بهذا الاعتبار . وإلى هنا كانت الحياة الأدبية تسير سيراً هادئاً فى قيادة صالحة متوجهة إلى غايتها من الكمال الممكن ، للأخذ بيمين الاجتماع إلى مواطن الرشاد والخير ، حتى نشأت الثورة ، واختلفت الأحزاب ، وانحاز كل فريق من الكتاب إلى حزبه ، ووقف بعضهم لبعض فى المحاماة عن الأغراض ، وللرماء بالزور ، والمهاجاة بالمنكر من الكلام . وفشت الصحف الأسبوعية فى مجامع الناس وبين كل الطبقات ؛ وما هى إلا هنيهة وإذا هى جاهدة فى التفتيش عن عيوب المستورين ، والبث لهنوات الناس ، والتشهير بمثالب الغافلين من أهل العمل الصالح ، حتى رهبها الناس وهابوها ، وتملقوا كتابها بالألطاف والهبات . وقد كان من أكبر جرائرك عند هؤلاء

يومئذ أن تكون من المياسير ، وأن يكون مكانك من الجاه والغنى يدعوك إلى امتطاء مركب سرى ، والقعود فى مشرب راق ، ثم يمر بك بعضهم فلا تبادره بالوثبة من مقعدك ، والعناق بكلتا يديك ، والترحيب بما فى طاقتك من اقتداح الأقداح ، واهتبال الأموال ، انك إذاً وفى اليوم الثانى على الفور ظنين فى حَسَبك ، مطعون فى أبيك وأمك . حتى تهافت الناس ، وتراجعت الأخلاق ، وعادت صفحة الأدب — بعد أن كانت سمحة صافية — شوهاء ملوثة بمزاج بشع من هذه المجاجات المقذورة . وعملت الجامعة الجديدة على الولاية للأدب بالمكابرة والغلبة ، وكانت دراستها الأدبية الحديثة ، وهى فى الجملة خلاصة آراء ومباحث لجماعة من الكهان المتعصبين على المشارقة من الافرنج ، تنطوى فى كثير من فصولها على التنفير من الأدب القديم ، والتشويه لجمال المدرسة القديمة ، بما أعان على قلة الحياء منه ريح الدولة القائمة . والانتصار لناحية معلومة من السياسة . وشاعت النعرة للاداب الأجنبية ، وزين للناس أعمالهم وأنفسهم ، ومدحوا بالتجديد ، ووصفوا بالثقافة الأوربية ، وعير المشايخ بالجمود والارتباط بمعاليق القديم ، وسرت هذه العدوى إلى العادات القديمة والوراثات الصالحة ، فملئت المسارح والطرقات والميادين بالأبناء يزحمون الآباء بالأركان ، ويسايرونهم فى كل مكان ، وخرج الفتى عن وسعه وعدا طوره ، وبطل السمر فى الدور ، وعطلت مناظر البيوت ، وجفيت الأواصر ، وتشبث النشأ بهذه الاباحات فى زيها الخلاب المتمثل فى النزاع بين القديم والحديث ، وأصبحت تسمع ممن يعرف وممن لا يعرف أسماء شكسبير وهوجو ولامارتين وفولتير ورسو وديمويه ، وأضيف كل خاطر ثاقب ، وكل بديع منحول ، وكل اختراع وكل طريف مليح ، الى اليونان والرومان ، والى الفرس والهنود ، والى العقلية الآرية . والآلهة الاولمبية . وكأن زهير حين قال :

يُؤخَّر فيوضع فى كتاب فيُدخر ليوم الحساب أو يُعجَّل فينقم قد احتال فيه على سقراط ، وتشطر على أبيقور ، وابتاعه من متاع هوميروس ، وهو حين قال :

ثلاثٌ كأقواس السَّراء ومِسْحَل
قد اخضرَّ من لسِّ الغَمير جحافله [1]

قد حاكه على نير بدوى ، واشتقه من حجارة الدهناء فهو عقلية عربية . وثقافة صحراوية . كأن الهواء والشمس والسماء والأرض والنجوم والرياح والسمع والبصر والعقل لم تمر بسكان هذه البادية ؛ وكأن الله تعالى لم يخلق لعقول البشر متاعا مشاعا ، ولم يجعل بينهم من صور التفكير مقدارا مشتركاً . ولقد عدت بدعة الجديد والقديم على كتاب ابن المقفع فانتزعته من أيدى التلاميذ لتضع مكانه كتابا جديداً من عمل الأربعين ، ليس فيه إلا أنه جديد ، وأكثر فصوله كتب على الراجح ، قبل هذا الأوان فى سنوات دراسية مختلفة ، وناله حظ الاستحسان من الأستاذ الذى كان بالمصادفة فقيها فى غير الأدب ، ومدرسا للاملاء لا للانشاء . فبقيت هذه المعلقات عند أصحابها حتى نودى فيهم ليضعوا هذا الكتاب ، فلم يجدوا ذخيرة أفضل ، ولا نمطا من الكلام أجمل من هذه الفصول التى يعرف مكانها من الكتاب كثير من الذين يعالجون الامتحان العام للطلاب فى كل عام .

ولقد كانت هذه الفترة حقا ثورة فى الأدب ، حتى لصح أن يوضع باسمها كتاب نفيس سماه كاتبه « ثورة فى الأدب » ونحن معجبون بهذا الكتاب وبمؤلفه الذى يعد من أوائل علمائنا البلغاء الممتازين بالرأى

(١) السراء والنبع : شجر تتخذ منه القسى . والمسحل : حمار الوحشى . واللس : الأخذ بمقدم الفم . والغمير : الكلأ الأخضر الأطراف . والجحفلة : شفة الحمار .

والفكر ، والموصوفين بالتنزه والسؤدد ، وهو فى بعض فصوله يحاول أن يجعل اكثر الفضل فيما كسبه النثر من الحياة والسعة للثقافات الأجنبية بما نقله التراجمة من أفراد الرسالات العلمية من علوم الأجانب وآدابهم . وترى مافى هذا القول من المبالغة عند القياس الى مابسطناه هنا من المناهج وما بيّناه من الأسباب . ولسوف تهدأ الثورة ، ويذهب الزبد ويبقى فى الأرض ماينفع الناس .

وبعد فإنك لتعجب لهذا العصر ، ألا تراه على كثرة ماتجد من شقشقة ، وما تسمع فيه من دعوى ، قد أخرج كتابا واحدا منتزعا ، أو أصلح فاسدا قديما ، أو أنشأ فنا من الأدب طريفا ، أو استخرج من اللغة مبحثا نافعا — اذا أنت تجاوزت مثلاً حديث عيسى بن هشام للمويلحى ، وصهاريج اللؤلؤ للبكرى — مع انقطاع العذر ، وإشراع السبيل ، وتواصل العلماء ، وتقارب الأمصار ، وانتشار الكتب ، وتيسر التحصيل ، وسعة الوقت ، وكثرة الآلات . ولا تكاد تظفر بكتاب يختلف عما رأيته فى المبسوطات القديمة ولم يكن جمع من حواشيها ونقش من فصولها . وتستطيع أن تجد له فى خزانتك بين آثار السلف وأسفار القدماء موضعا ، أو تنازعك نفسك الى معاودة قراءته فتحس بلذة أو بفضل عائدة . وينبغى أن نضع فى أعناق اخواننا المتخرجين فى الكليات الأجنبية من دار العلوم حقهم من هذه التبعة ، فإنهم يقطعون الصلة التى يجب أن تكون أوثق الصلات بينهم وبين هذه الدار ، فلا يبرونها الا بشىء لايكاد يفى بحق ولا يقوم بأود ، نعم فإنهم يؤلفون فى المنطق وعلم النفس والفلسفة وفى اللغات السامية ، ولا تحظى منهم العربية ببحث مستطرف ، ولا بتأويل فى الأدب جديد ، وهم يعلمون — أكثر مما نعلم — ما تصنعه الجمعيات العلمية لطوائف

المستشرقين من الخدمة النافعة لآثار المشارقة فى لغاتهم وفى الضائع المفقود من آدابهم ، وآثار المحدثين والقدماء من شعرائهم . لقد ملئت جوانب المكاتب بطرائف الكتب فى الغرائز وعلوم التربية والفلسفة والنفس ، ولقد سمع الناس المحاضرات فى مذهب الإشراق لأفلاطون ، ونظريات « منتسورى » فى التربية ، ورأى « هربرت سبنسر » فى العادة والخلق ، وعلاقة الذاكرة بالعقل الغائب ، واذا لا تخشون أن يقول أحد إنكم لم تتفقهوا فى اللغات الأجنبية ، ولا أن ينكر عليكم منكر هذه الحياة الجميلة على ضفاف التامز ، ولا تقولوا إنكم لم تتخصصوا لفقه العربية ولا لآداب اللغات ؛ وإنكم توسعون الطريق لغيركم ممن لم يثقف من اللغات الأجنبية الا ما يمكن فى الجملة من الحديث والفهم ؛ لأن الحياة الأدبية قد أصبحت الآن تتطلب جهودا جديدة ، وكفاحا مشتركا ، على نمط من الأساليب العلمية لمناهج البحث الحديث . وإنها لتطمع منكم فى العريض المبسوط من الطاقة الواسعة والكفاية المحمودة ، وقد قلناها كلمة خالصة . والله ولينا ، ومنه العون ان شاء الله .